

تحية الكتاب

بقلم حضرة صاحب العزة الأستاذ

محمود نجور بك

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

عرفت الثقافة العربية القديمة للتاريخ حقه ، ورعت جانبه ؛ فإن ركن التاريخ في مكتبة العرب حافل بروائع الآثار ، وما من عصر من عصور الأمم العربية إلا تمخض عن كتب تاريخية ، تجمع بين التعدد والتنوع ، جرت بها أقلام الأعلام من العلماء والأدباء .

غير أن هذه الكتب التي يخطئها العد ، ولا يستطيع أن يستوعبها الفرد ، تتجلى فيها خصلتان على وجه عام ؛ أولاهما : أنها تعنى أكبر ما تعنى بأحداث الحرب والسياسة ؛ والآخرى : أنها تلتزم في غالب أمرها خطة السرد والإخبار . والخصلة الأولى تجعل هذه الكتب جانبا واحدا من التاريخ ، لا التاريخ كله ؛ وأما الخصلة الأخرى فإنها تحيل هذه الكتب مادة للتاريخ ، لا كتباً في جوهره الخالص ، وفنه الرفيع .

وإذن فقد ظلت المكتبة العربية مفتقرة إلى مؤلفات في التاريخ العربي ، تعرض حضارته وما اعتورها من عوامل التقدم والتخلف ، وتسجل أحوال شعوبه العلمية والاقتصادية والاجتماعية ، غير مقصورة على تواريخ

الملوك والدول ؛ على أن يكون ذلك العرض والنسجيل جاريا على المناهج المقررة في الدراسة والبحث ، وفي استبطان الأسباب والعلل ، وفي إحسان الموازنة والاستخلاص ، حتى تستبين التيارات التي تعمل ظاهرة أو خفية في مجرى التاريخ ، فتعلو بها الأمم أو تهبط ، وتسعد أو تشقى .

وفي هذا العهد الذي هو خليق بأن يسمى عهد الانبعاث لتجديد العلوم والفنون والآداب في الشرق كله ، كان لزاما أن يسد ذلك النقص في فن التاريخ العربي ، حتى يأخذ حظه من ذلك التجديد الذي تسامت إليه الهمم ، وتوجهت نحوه الآمال .

وبين الطليعة من حملوا لواء التجديد في كتابة التاريخ ، صديقنا الأستاذ الجليل « محمد جميل بيهم » ، فقد وهب لهذا الفن مواهبه ، وقصر عليه جهده ، وذلك هو يزود المكتبة العربية في نحو ثلاثين سنة — على ما أعلم — أشتاتا من المؤلفات في جوانب التاريخ العربي والإسلامي ، تعد في جملتها مثلا رائعا من أمثلة الجهاد في سبيل الانتقال بذلك التاريخ من مرحلة السرد والإخبار ، والاقتصار على شئون الملوك والدول ومشهور الشخصيات ، والدخول به في مرحلة جديدة ، من تصوير الحياة على اختلاف ألوانها ومناحيها في عصور العروبة والإسلام ، وذلك على نحو من استيفاء التحليل والتعليل ، والربط بين النتائج والمقدمات .

ولا ريب أن هذا المؤرخ المجدد خليق بما نال من مكانة علمية كريمة ، فهو أحد أولئك القليلين الذين تعشقوا العلم ، وأخلصوا له الحب ، وأوجبوا على أنفسهم التخصص ، وصبروا على التقصص والمثابرة في غير ملالة ولا نكوص ، وذلك كله إلى جانب ما فطر عليه من قدرة على التمييز والتمحيص ، ومن ألمعية في تفهم التاريخ ، واستكناه بواطنه .

إنك لتقرأ ما يكتب من مؤلفاته التاريخية ، فيتوضح لك ما حث من مختلف المراجع والأصول ، وما عانى من جهد في البحث والاستقصاء ، ولكنك تراه وقد عدل بك عن المادة السطحية للتاريخ ، وتغلغل بك في الأعماق ، يستشف لك ما وراء الظواهر ، فإذا أنت واقف على حقائق ونتائج لم يكن أمرها بالهين الميسور .

ولعل لا أغمطه حقه إذا قلت إنه يجمع في إهابه بين « الطبرى » و « ابن خلدون » . . . ففي مؤلفاته التاريخية مزاج من ثقة الراوى الأمين ، ونظرة الناقد البصير .

وإن مؤرخنا المجدد ليمتاز بخير ما يتحلى به الكتّابون في التاريخ ، ذلك هو الاتزان . فأنت ترى في عامة كتبه رصانة في التدوين ، فلا جموح في الحكم ، ولا ركود في العرض ، ولكن دقة فيما يبسط من المعلومات ، واعتدال فيما ينتهى إليه من الآراء .

وهذا الاتزان الذى تمتاز به كتبه ، يجاؤ لك شخصيته إن كنت لم تأنس بمجلسه ؛ فهو رجل يكسوه وقار العلماء ، ويسوده هدوء الطبع ، وينم حديثه عن سماحة نفسية أصيلة .

وبين يدي القارىء كتابه الجديد « الحلقة المفقودة في تاريخ العرب » ، يواصل به تاريخ الأمة العربية الذى بدأه في كتابه « قوافل العروبة ومواكبها » . وفى هذا الكتاب الجديد تلتقى خصائص مؤلفه في تدوين التاريخ ، فهذه الحلقة المفقودة حسبها من ضمان التقدير أنها حلقة من تلك السلسلة الذهبية التى يسديها الأستاذ « محمد جميل بيهم » إلى المكتبة العربية ، لتخلد معها ما خلدت على الزمان .

ديباجة الكتاب

لما أكتب على تأليف كتابي « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » لإصدار سفر جامع يصح أن يكون تاريخ أمة في مشرقها ومغربها ، في ماضيها وحاضرها ، لاحظت أن هناك حلقة مفقودة في سلسلة تاريخنا القومي ، لم يوفها حقها أي مؤلف ؛ ذلك لأن ما بين أيدينا من كتب التاريخ الخاصة بالعرب ، إما أن تقف عند سقوط بغداد وظهور السلطنة العثمانية ، أو تتعدى مسرعة معظم الأجيال التي تلتها ، لمعالجة موضوع النهضة العربية الحديثة .

أما فيما بين هاتين المدينتين ، فإن أحدا من المؤلفين لم يُعشّن - على ما أعلم - بوضع تاريخ عام شامل للأمة العربية ، يتناول هذه الأجيال كاملة ، في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

نعم ، إن بعض المؤلفين قد تعرضوا للموضوع ، ولكنهم مع ذلك لم يملئوا الفراغ ، لأن كتبهم كانت إما إقليمية ، تحصر البحث في قطر من الأقطار العربية ؛ وإما زمنية ، تنقيد بعصر من العصور . على أنها كانت مع ذلك إذا تكلمت على السياسة أهملت الشؤون الاجتماعية والاقتصادية ، وإن أملت بالاقتصاديات أو الاجتماعيات أغفلت بحث السياسة .

لذلك وجدت الحاجة ماسة لصياغة الحلقة المفقودة ، التي تبتدىء من آخر القرن الثالث عشر ، وتنتهى بانتهاء الحرب العالمية الأولى ، وخصوصا أن هذا العهد المعروف بالعهد العثماني ، يمثل تاريخ العرب في التمدن الحديث ، كما أنه بالنسبة لأممتنا بمثابة فترة انتقال ، ودعت في مبدئها حضارتها الزاهرة ، واستقبلت في منتهاها التمدن العالمي الحاضر .

هذا ، ولما لم أجد في كتابي «قوافل العروبة» متسعاً لتوفية هذا البحث حقه ، تجاوزت هذه الأمنية وأنا آسف ؛ ثم لم ألبث أن عقدت النية على ملء هذا الفراغ ، شاعراً بحوافز تدفعني إلى الإقدام . ولعل إلمامي بالتاريخ العثماني وفلسفته ، هو الذي شجعتني على ذلك ، لأن تاريخ العرب خلال هذه القرون لم يكن مرتبطاً بتاريخ آل عثمان فحسب ، بل كان متشابكاً بتاريخهم ، بحيث يصعب على المؤرخ أن يجيد في تدوين أخبار العرب خلال تلك الحقبة ، إذا لم يكن مزوداً بمعرفة تاريخ الإمبراطورية العثمانية .

obeikandi.com

تمهيد

فى ذلك العام التاريخى (٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م) الذى سقطت فيه قاعدة ملك العباسيين بأيدى المغول ، وقتل خليفتها وأهله ، وفتك هلاكو بسكانها ، حتى كان عدد القتلى يتراوح بين مليون ومليونين ، على روايات المؤرخين ، وألقى هذا الطاغية كتبها فى نهر دجلة ، وكانت لا تحصى ولا تقدر بشمن ؛ فى ذلك العام الذى عاصر احتضار التمدن العربى - ولد فى مدينة إسكود بآسيا الصغرى ، للأمير أرطغرل عامل السلطنة السلجوقية بقونية ، ولد أسماه عثمان ، قدر له أن يكون مؤسس سلطنة عظيمة الشأن ، تحمل اسمه ، وأعنى بها دولة آل عثمان .

سقطت دار السلام ، وما سقطت فى الواقع هذه البلدة وحدها ، وإنما هوت معها الأمة العربية قاطبة ، ولم يبق لها فى الحكم أثر إلا ما كان من إمارات فى الجزيرة وغيرها محدودة النفوذ ، وعلى رأسها الدولة الرسولية باليمن (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ) ، والدولة النصرىة بخرناطة (٦٢٩ - ٨٩٧ هـ) ، وكانت يتيممة وحيدة بالآندلس ، تعاني آلام الاحتضار .

أما الخلافة العربىة ، التى انتقلت بعد سقوط بغداد إلى القاهرة ، فقد أصبحت بمصر ضيفا على ملوك الأعاجم ، ولا شأن لها إلا ما كان من قبيل المكانة الروحية ، وكان الخلفاء العباسيون بالعراق قد احتفظوا حتى فى عهد تقلص سلطتهم ، واقتصارها على بغداد وما حولها ، بنفوذ الخلافة العظيم على السلاطين المتغلبين ، وعلى جميع العالم الإسلامى .

ولقد تعرض ابن خلدون بعد مضى قرن ونصف قرن على سقوط دار السلام ، لوصف حال العرب . قال : « ولما ذهب أمر الخلافة منهم ، واحى رسمها ، انقطع الأمر جملة من أيديهم ، وغلب عليهم العجم دونهم ،

وأقاموا بادية في قفارهم ، لا يعرفون الملك ولا سياسته ، بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم^(١) .

ونحن لا نجارى صاحب المقدمة في هذه المبالغة ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر مع ذلك ما قاله في حدود انقطاع الأمر جملة من أيدي قومنا العرب ، وغلبة العجم دونهم في المغرب والمشرق .

ففي شمالى إفريقية قام المماليك البحرية بمصر (٦٤٨ - ٧٩٢ هـ) ، وخلفهم عليها المماليك الجراكسة ، وألحقوا بها الشام وكيلىكيا ، وقام بنو زيان بليبيا (٦٣٣ - ٧٩٦ هـ) وبنو حفص بتونس (٦٢٥ - ٩٤١ هـ) ، وبنو مرين بمراكش (٥٩١ - ٩٧٥ هـ) ، أزنان كانت الجزائر موزعة بين أصحاب الإقطاعات ، آل مزنى فى بسكرة ، وابن عمرو فى بجاية ، وآل عبد الواد فى نجد تلمسان ، وفرع من بنى حفص فى قسطنطينة ، وكلهم من البربر .

ولولا انصراف دولة البرتغال عن الفتح إلى جوب البحار ، فى سبيل الاتجار ، لأصبحت بلاد المغربين فريسة لها ولأسبانيا ، ومع ذلك فقد احتلت الدولتان وقتئذ طنجة وسبتة وأرزيلى ، ووضعوا يدهم بذلك على مجاز جبل طارق ، ففصلوا بين دولة بنى الأحمر بالأندلس وبين أخواتها فى عدوة المغرب ، حتى قضوا عليها أواخر القرن الخامس عشر .

وأما فى الشرقين الأوسط والأدنى ، فقد قام على أنقاض السلطنة السلجوقية التركية أتابكتها وعمالها ، وأنشأ هؤلاء حكومات لم يكن لأكثرها عمر طويل ، ولا أمر نافذ . ثم أعاد المغول الكرة على البلاد العربية بعد قرابة نصف جيل من سقوط بغداد ، وكان هدفهم فى هذه المرة غير هدفهم فى عهد هلاكو ، حينما حمل على المسلمين متآمرا مع الصليبيين ؛ كان الداعى لحملة المغول الأخيرة أن الخان غازان بن أرغو ، شاء بعد إسلامه ،

(١) ابن خلدون ، المقدمة : فصل فى أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك .

أن يبسط سلطانه على إخوانه في الدين بالشرق الأدنى ، ولسكنه إذ تهيب
ممالك مصر ، تحول عنهم إلى الأناضول ، وقضى على سلطنة قونية السلجوقية ،
(٦٩٩ هـ = ١٢٩٩ م) .

ويبدو هذا الحادث لأول وهلة ، كأنه حادث هين ، والواقع أنه
كان من الأحداث العظيمة في التاريخ ، لأنه فسخ المجال لقيام إمبراطورية
جديدة ، أعنى سلطنة آل عثمان ، التي تحكمت في مجرى التاريخ مدة من
الزمن ، في القارات الثلاث على السواء : آسيا وأوربة وإفريقية .

فقد كان عثمان شاه جد هذه الأسرة عاملا على مقاطعة أناتولية
لدولة قونية ، فما إن قضى المغول على هذه الدولة حتى أعلن استقلاله ،
تاركا لأبنائه تحقيق أمانيه وآماله ، فأتيح لهم مالم يخطر في باله ، عبور
البوسفور والانتصار على جيوش أوربة المتحدة ، وفتح القسطنطينية
(٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م) ، واستئصال شأفة الإمبراطورية البيزنطية ، التي
كانت قد قامت في وجه العرب طويلا ؛ كما تسنى لهم التقدم المطرد
في أوربة ، حتى حاصروا « وينة » قاعدة النمسا ثلاث مرات .

وهم إلى ذلك قد بسطوا سلطانهم على الشرق الإسلامي ، فدخل العرب
جميعهم في حكمهم ، سواء أكانوا بالشرق أم بالمغرب ؛ وظلّ بعض
أمصارهم عدة قرون تحت سلطتهم حتى حين قريب ، إلى معاهدة موندروى
(١٩١٨) ، التي أوجبت على آل عثمان الاعتراف بالجللاء عن جميع الأقطار
العربية .

وإذا كان ذلك العام الذي قامت فيه السلطنة العثمانية يعتبر عام شؤم
في نظر بعض قومنا ، لأن هؤلاء الترك دفنوا البقية الباقية من حضارتنا ،

ووطدوا أركان سلطانتهم على هاماتنا بالقوة والعنف ، فهو في نظر بعض أصحاب الفكرة الملية عام خير وبركة ؛ ذلك أن المسلمين الذين كانوا قد أمسوا عرضة لنزاة الغرب والشرق ، وهدفا لظلمهم ، وجدوا في آل عثمان المنقذ المخلص ، وخصوصا أن هؤلاء الترك تناولوا الراية من العرب عقب سقوطها ، ورفعوها عالية خفاقة ، فأعادوا إلى الأذهان ذكرى الفاتحين الأوائل ، وأعادوا مع هذه الذكريات عز الإسلام وأمجاده .

وإنه لمن دواعي سرورنا أن نحاول بهذا الكتاب رفع الستار عن تاريخ أمتنا العزيزة ، في هذا العهد الطويل ، ونرجو أن نكون من الموفقين .